مكية — الجزء الثلاثون سورة قريش — آياتها ٤

سُورَةُ قُرَيْشٍ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصة الفيل وبين النعمة التي أنعم بها على قريش، كأنه يقول: فعلنا ذلك ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ من أجل اجتماع قريش، ومن أجل النعمة التي أنعم الله بها عليهم من رحلتهم في الشتاء والصيف، وهذا قول لبعض أهل العلم؛ حيث جعل سورة الفيل وسورة قريش كالسورة الواحدة.

والمعنى الثاني: أن الله عَزَّوَجَلَّ امتنَّ على قريش بما أنعم عليهم من النعم ومزيد المِنن حيث خصَّهم بحرمٍ آمن، وبطريق لرحلتهم آمن، فكانوا يرحلون إلى اليمن في الشتاء، ويرحلون إلى الشام في الصيف؛ للتجارة ونحوها، وكانت لا تعترضهم قبيلة من قبائل العرب؛ لاعتقاد فضلهم؛ لأنهم سكان البيت الحرام، بل إن من دخل في حلفهم صار آمنًا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ ثم بين هذا الإيلاف ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ أَيْ: أن هذا الاجتماع وهذا الإيلاف هو رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وكانوا يجمعون ما لديهم من الأموال ثم يؤمِّنون عليها رجالًا منهم كالمضاربة، فإذا ذهبوا إلى اليمن اشتروا من لباسها وسلاحها وأنواع ما فيها من الحبوب وغيرها، وإذا ذهبوا إلى الشام اشتروا من حللها ومجوهراتها، ونحو ذلك مما يحتاجونه لأكلهم ولبسهم وتجارتهم، ولذلك لما خرج النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لالتقاء العير في بدر، خرجوا بحدهم وحديدهم حتى وقعت المعركة المشهورة.

وبما أن الله أمتن عليهم بهذا الإيلاف والأمن والنعمة، فالواجب عليهم شكر الله ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ أن يوحدوا الله عَزَّوَجَلَّ بأقوالهم، وأفعالهم، ومعتقداتهم، ولكن الواقع أنهم عبدوا الحجارة الصماء، والأصنام البكماء، فعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونصبوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا، حجارة نقصها ظاهر فيها، ومع ذلك تسلط عليهم الشيطان فعبدوها، وتركوا عبادة الله جَلَّجَلَالُهُ.

وقد امتن الله عَزَّوَجَلَّ على قريش بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، وهذه القرية هي مكة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ ﴾ أمر لأهل مكة ولجميع الناس ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ صاحب هذا البيت، والمراد به البيت العتيق، الكعبة المشرفة، أضيف إلى الله عَزَّوَجَلَّ لعظيم منزلته، ولجليل رفعته، وهو أول بيت وضع للناس، وهو قبلة المسلمين، وفيه من الآيات البينات والمقامات العظيمات ما يعرف قدرها كل مسلم وموحد، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧]، وقيل المراد بمقام إبراهيم: المكان الذي يُصلى فيه عند البيت، وقيل: جميع مقامات إبراهيم ويدخل فيها الصفا والمروة ومنى ومزدلفة وعرفات، وهذا معنى مقارب ومقبول.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم ﴾ أَيْ: رب هذا البيت هو الذي أطعمهم، وذكر الطعام تنبيهًا إلى غيره وهو الشراب، ولا قيام للإنسان إلا بطعام وشراب، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يطعم الناس جميعًا ولا يُطعم؛ لكمال غناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ﴾ [الأنعام:١٤].

ولم يطعمهم فقط الطعام الذي تقوم به الأبدان، بل وسع لهم في غير ذلك، وكانت تأتيهم الفواكه وكل ما لذ وطاب، وكان من عجيب قدرة الله أن جعل الطائف التي هي بلد زراعي ومناخه لطيف قريب من مكة، يبعد عنها بمقدار مرحلتين، فكانت تأتي مكة من الطائف جميع أنواع الفاكهة، من أعنابها ورمانها ونحوها، ولو تأملنا البيت العتيق في هذه الأيام لرأينا تحقيق هذا الأمر، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سخر جبي جميع الثمرات إلى البيت، فتجد كل ما لذ وطاب من المأكول والمشروب والملبوس.

﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ لأن الجوع شديد، وإذا تسلط على الإنسان أضعف قواه، وأسهر ليله، ولحقه الضرر، ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ أَمَّنهم من أعدائهم، فلم تغزى مكة ومن غزاها هلك، فقد جاءها أبرهة الأشرم بجيش لا يدان لأحد بقتاله، فسلط الله عليه الطير الأبابيل التي ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

وأباح الله لمحمد ﷺ مكةَ ساعة من النهار، حتى كفروا وتمردوا على دين الله جَلَّجَلَالُهُ، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا، وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ**»(١).

فمن أراد دوام نعمة الله عليه فليشكر ربه عليها، ومن أعظم شكر الله أن يوحد ويفرد بحقه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(٢).

ونجد أن المجتمعات الإسلامية تأن من الحروب والويلات والفقر والدمار، ولو تأملنا إلى سبب ذلك لوجدناه البعد عن الدين، وإلا فوعد الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥]، وتجد كثيرًا من بلاد الإسلام تعج بالقبور والقباب والسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، ثم بعد ذلك يطلبون الأمن والأمان، أنَّى يكون له الأمن ولم يحصل منهم الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]، هكذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ الأمن للمؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف:١٣]. وهذه قريش التي كانت منيعة حصينة سلط الله عليها أهل الإسلام حين أبوا إلا الكفر والعناد والإجرام، فقتل النبي ﷺ منهم في بدر سبعين وأسر سبعين، ثم غزا مكة وفتحها في السابع عشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (١١٢، ٤٣١٣)، ومسلم (١٣٥٥).
(٢) متفق عليه، البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).